تأثير مناسك الحج على سلوكيّات وأخلاق الحاج (1)

2024-05-17

الحمدُ لله جعلَ الفضيلةَ لباسًا للمُتقين وحِلْيَة، وحثَّ على حراسَةِ الأخلاق في مُحكَم تنزيلِه وصادِقِ وَحْيِه، ووعَدَ أهلَ العفاف كِفايةً وغُنْيَة، وفطَرَ الناسَ على الحياء فصارَ نقاءُ المُجتمعات لكِرام الناس بُغْيَة، وتجافِيها عن مُباءَات الرَّذائِل مطلَبٌ شريفٌ وحِمْيَة. فسبحانه من إله جعل مناسك الحج وشعائره وأعماله تُربّي في المسلم مكارم الأخلاق وجلائل الخصال، وتعمّق فيه نوازع البر والتقوى وتزرع فيه وازع الدِّين.

إنَّ الْمَكَـارِمَ أَخْلاقٌ مُطَهَّرةٌ * فَالدّينُ أَوَلُّهـا وَالعَقْلُ ثَانِيهَا

وَالْعِلْمُ ثَالِثُهـا وَالحِ ِلْمُ رَابِعُها * وَالْجُودُ خَامِسُها وَالْفَضْلُ سَادِيهَا

وَالْبِرُّ سَابِعُهـا وَالصَّبْرُ ثَامِنُها * وَالشُكـرُ تاسِعُها وَاللّيِنُ بَاقِيهَا

وَالنَفسُ تَعلَم أَنّي لا أُصادِقُها * وَلَسْـتُ أَرشُدُ إِلا حِيْنَ أَعْصِيهَا

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيـكَ لَهُ، الملك الدّيّان، الذي شرع العبادات لتزكية النفوس وتكميل الإيمان. ونوّعها ما بين بدنية. مثل الصّوم والصّلاة. ومالية. مثل الصّدقات والزّكاة. وكفريضة الحج الجامعة بين الأموال والأبدان. وأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا ونَبِيَّنا مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ. وصَفِيُّهُ مِنْ خَلْقِهِ وحَبِيبُهُ، السيّدُ الكاملُ في عبوديّتِه. الفاتِح الخاتِم في نبوّته ورسالتِه. أكملُ مَنْ أَمَّ البيت الحرام بحجّه وعمرتِه. وأجملُ مَنْ طاف به وجعله وجه قِبلته. وأفضل مَنْ وقف بالمشاعر ودعا لأمّته. وأجلّ من نسك المناسك وقال:((خذوا عنّي مناسكَكُم)) حرصًا على اتّباع سُنّته.

هذا المعظَّمُ خيرُ مَنْ وَطِئَ الصَّفَا * يُرجَى ويَشْفَعُ في المَعاد لِمَنْ هَفَا يا مرتَجين مِنَ الشفيع تعطُّفًا * صلّوا على هذا الحبيبِ المصطفى

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على سيّدنا محمد. النبيّ الطاهر الأبرّ. وعلى آله ذوي العزّ الشامخ والنسب الأفخر. وعلى صحابته المخصوصين بالإيمان الكامل والسرّ الأبهر. صلاة تتحفنا بها برضوانك الأكبر. ونكون بها ممّن حجّ البيت وقبّل الحجر. ووقف بعرفة وحلق ونحر. وختم حجّه بزيارة سيّد البشر. سيّدنا ومولانا محمّد. صلى الله عليه وسلم. وجال في مدينته الطيّبة ومتّع فيها النظر. ونال بالتبّرك بآثاره الشريفة غاية الوطر. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. لا يخفى أنّ الحج عبادة من أعظم العبادات، رتّب الشرع عليه ثوابا عظيما لمن كان حجّه مبرورا، كما قال عليه الصلاة والسلام ـ فيما رواه الشيخان: ((الحجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلَّا الجنَّةُ))، وعندهما أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((من أَتَى هذا البيتَ فلم يَرفُثْ، ولم يَفسُقْ رَجَع كما ولَدَتْه أمُّه)). وهذه الفضيلة العظيمة هي من أجلّ المنافع التي أشار إليها الله تبارك وتعالى بقوله في سورة الحج: ((لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ))، فقوله: ((مَنَافِعَ)) فهي عامّة في المنافع الدينية والدنيوية. والمتأمِّل في الحج يجد أنّ أعظم مقاصده هو تحقيق العبودية لله عز وجل، وتوحيدُه بإفراده وحده سبحانه بالعبادة. ولهذا لمّا ذَكر الله عز وجل جملة من آيات الحج قال في سورة الحج: ((وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ. فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا. وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ)). ومظاهر التسليم والإنقياد والتوحيد في هذه العبادة واضحةٌ جداً، ولهذه المظاهر أثر عظيم على زيادة الإيمان، واستقامة السلوك. تبرز هذه المظاهر للمسلم في كل موقف من المواقف التي تتّصل بنُسُكه، ولعلّنا في هذه الخطبة نذكر هذه المواقف. مع الإشارة إلى بعض آثارها السلوكية الأخلاقية. أيّها المسلمون. الموقف الأوّل: عندما يسافر الإنسان إلى البيت الحرام لأداء شعيرة الحج، ألا يستشعر مِنّة الله عليه وفضلَه، أن هداه لهذا السفر المبارك. في الوقت الذي يسافر فيه البعض من المسلمين يمنة ويسرة لتحصيل شهوة قد تكون محرَّمة، أو يسافر إلى بلاد الكفر من غير حاجة

أو ضرورة!. وهل يتذكّر المسلم نعمة الله عليه أن يسّر له السفر والوصول إلى تلك البقاع المقدَّسة، في الوقت الذي يتمنّى ويشتاق كثير من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها الوصول إلى البيت الحرام. فلا يستطيعون. إمّا لقلّة ذات أيديهم. أو لغير ذلك من الموانع؟!. الموقف الثاني: في لباس الإحرام. يتجرّد المسلم من اللباس الذي اعتاده، إلى لباس يستوي فيه الجميع. الغني والفقير، والأمير والحقير، وهو تأكيد لأصل عظيم في هذا الدين، ألا وهو أنّ الناس سواء لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. وقول الله عز وجل في سورة الحجرات أبلغ: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)). هذا المشهد العظيم يبعث في النفس آثاراً عظيمة، منها: أنّ توحيد اللباس فيه إشارة إلى توحيد الكلمة، والمقصد، ((فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا. وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ)). ومنها: أنّ الناس في ميزان العبودية سواء، الله ربهم وهم عبيده، فأكرمُهم عنده أتقاهم، وأرفعُهم منزلة مَن زاد ذلّه لمولاه، وعَظُمَ انكساره بين يدي ربه، وكَثُرَ طَرْقُه لباب سيّده، أمّا مناصب الدنيا فلا وَزْن لها هنا. أيّها المسلمون. الموقف الثالث: التلبية، وما أدراك ما لتلبية؟!. التي تستمر مع الحاج منذ تلبّسه بالحج إلى أن يرمي جمرة العقبة يوم العيد، هذا النداء الخالد الذي يُعلن فيه العبد استجابته لنداء الله الذي أعلنه الخليل سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام. كما في قوله سبحانه في سورة الحج: ((وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)). هذه التلبية التي قال عنها سيّدنا جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما في وَصْفه لحجة المصطفى صلى الله عليه وسلم: ((فأهلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوحيد))، وتأمّل قولَه ((بالتوحيد))، وذاك أنّ أهل الجاهلية كانوا إذا لبّوا قالوا: (لبّيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك. تملكه وما ملك). فكانوا يشركون في التلبية. إذن هي ألفاظ ومعان عظيمة، فيها ثناء على الله تعالى، واعتراف باستحقاقه للعبادة وحده سبحانه، واعتراف بأنّ

النعم كلها من عنده، وأنه سبحانه هو المستحق للحمد كله، لهذا ينبغي أن يكون لها آثار على سلوك الحاج، الموقف الرابع: الحاج يفعل في حجه أموراً كثيرة، قد لا يُدرك لها حكمة سوى تحقيق العبودية والإستسلام لله عز وجل، والمتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم، وهذا كله يثمر التقوى.

فما البيت؟ والأركان؟ والحَجر؟ والصفا؟ * وما زمزم؟ أنت الذي قصدناه

وأنت منّانا، أنت غاية سؤلنا * وأنت الذي دنيا وأخرى أردناه

وهكذا الشأن في جميع المناسك، يسأل الحاج أحيانا: لماذا الطواف بالبيت؟ ولماذا لم يكن خمسة أشواط بدل سبعة؟ وما الحكمة من السعي؟ ورمي الجمار؟ والبيات بمنى؟ والنحر، و...و... أسئلة كثيرة... لا نعلم لها جوابا. إلا أنّ الأمر محض استسلام وتعبّد، وتعظيم لشعائر الله عز وجل، وإقامة ذِكره سبحانه وبحمده، وأنّ الهدف من ذلك هو حصول تقوى الله سبحانه، ولهذا قال الله عز وجل في سورة الحج: ((لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ. كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ. وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ)). والشاهد قوله: ((لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ)). أيْ لتُعظّموه وتُجلّوه جزاء هدايته إياكم. فإنه يستحق أكمل الحمد، وأجلّ الثناء، وأعلى التعظيم، ويقول عز وجل في سورة الحج: ((ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ))، ويقول سبحانه في سورة البقرة: ((الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)). ومع هذه التساؤلات، فالمسلم لا يعتريه شك في أنّ هذه الأعمال هي مِن صُلب أعمال المناسك، وأنه لو لم يفعلها لم يصح حجّه. أو نقص أَجْر حجّه، أيّها المسلمون. الموقف الخامس: يجد المسلم في الحج والعمرة أيضاً أنّ الإحرام له محظورات وممنوعات يمتنع المسلم منها حال إحرامه. كالطِّيب ولَبْس الثياب التي تفصّل على الجسم، وغيرها من المحظورات، ويلحظ المسلم أيضاً أنّ الحَرَم له أحكامه التي تخصّه، فلا

يُنفَّر صَيْدُه، ولا يُعْضَد شَوْكُه، ولا تَحِلّ لُقَطَة الحَرَم إلا لمُنشِد، إلى غير ذلك من الأحكام التي جاءت بها النصوص الشرعية، وبَسَط أهل العلم الكلام عليها، وأيضاً شُرِع للمسلم أن يأتي البيت على أحسن هيئة، ولِباس معظَّم وهو الإحرام. ولا يجوز للحاج أن يخرج من مكة بعد حجه إلا بعد طواف الوداع ما لم يكن معذورا شرعا، ويلاحِظ المسلم أيضاً أنّ الحج مضبوط بأوقات وأماكن محدَّدة، لا يجوز أن يتجاوزها المسلم، فلماذا كل هذا؟ لا شك أنّ هذا كله من تعظيم شعائر الله عز وجل، لأنّ تعظيمها تعظيمٌ لأَمْر الله، وهذا يُورث في النفس من الإستكانة، والخضوع، والإستسلام، والذل لله، وانشراح الصدر. ما لا يَستطيع وَصْفَه أعظمُ الناس بلاغة وفصاحة، وهذا واللهِ هو مقصود العبودية الأعظم، وبه تعلو درجة العبد عند ربه. وتُمحى عنه آثار الذنوب والمعاصي. أيّها المسلمون. ومن ذلك أيضاً أثر سلوكي آخَر ألا وهو: قيام عبودية المراقبة لله عز وجل، فالحاج يطوف ويسعى ويرمي الجمار ويبيت بمنى ويقف بعرفة وينصرف منها كل ذلك حَسْب العدد والزمان والمكان الذي حدّده الشرع، ولا يخطر بباله أن يجعل الطواف ثمانية أشواط مثلا، والسعي يختصره إلى خمسة، أو أنه يفكِّر في أن يزيد في عدد حصى الجمار، كلا، كل ذلك ليس في باله، ولم يَحُمْ طائر تفكيره حوله، فلماذا؟ لأنه يعلم أنّ الله تعالى مطّلِع عليه، ولأنه يخشى فساد أو نَقْص حجّه؟ وهذا أثر عظيم، ودرس كبير، يبعث المسلم إلى مراقبة ربه جل وعلا في سائر أعماله وشتّى أحواله، فالمطّلِع على أحوال الحج مطّلِع على غيره من الأعمال. وهو الله جل جلاله. أيّها المسلمون. ومن الآثار السلوكية أيضاً: الإعتياد على اغتنام الأوقات. والعلم بأنّ لكل وقت من أوقات المسلم له وظيفته التي جعلها الله لها. فهذا الحاج لو فاته الوقوف بعرفة، أو رمى في غير وقت الرمي، أو بات خارج منى أو غيرها من الأعمال، إمّا أن يَفسُد حجّه. أو يَنقص حَسْب رتبة العمل. والمقصود من ذلك أن يعوِّد المسلم نفسه على ترتيب وقته. ومحاولة اغتنامه، وعدم تضييعه، فإنّ العمر قصير والواجبات كثيرة. أيّها

المسلمون. لا ريب أنّ الحديث عن موضوع كهذا وهو تأثير مناسك الحج على سلوكيّات وأخلاق الحاج موضوع طويلٌ. وللحديث بقية عن الآثار التي تتركها عبادة الحج، وتؤثّر في حياة الحاج خاصة. وحياة المسلم عامّة. في عباداته ومعاملاته. وفي أخلاقه. فنسأل الله تعالى أن يرزقنا القيام بعبادته على الوجه الذي يُرضيه عنّا، وأن يعفو عن ما زلّت به الجوارح، إنه أكرم مسؤول. كما نسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علّمنا وسمعنا، وأن يتقبّل من الجميع صالح أعمالهم، وأن يُيسّر للحجّاج حجّهم، وأن يتمِّم سعينا وسعيهم بالغفران والقَبول، وأن يجعل ما عَلِمناه حُجّة لنا لا علينا. اللهم أعن الحجّاج على أداء الواجب. ووفّقهم لنيل الرغائب. وارزقهم الرحلة السعيدة. والأَوْبة الحميدة. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. اهـ